ذاكرة الطفولة
رانية صالحي
إشراف ملتقى نور الثقافي لكتّاب وشعراء العرب المتميزين

ذاكرة الطفولة

رانية صالحي

إشراف ملتقى نور الثقافي لكتّاب وشعراء العرب المتميزين

ذاكرة الطفولة

رانية صالحي

قصة
قصيرة

رانية صالحي

تمهيد

كلّ إنسان في داخله شمس متى غربت؛ فهو يغرب معها، فليعمل على ألّا يقتصر شعاعها على نفسه بل لابدّ أن يجعل لها أثرًا على الآخرين.

لم أكن تلك الفتاة المدلّلة التي تدير وجهها معبرة عن رفضها لثياب العيد، ولا تلك التي تبتعد عن طاولة الطعام وقد رُسمت على ملاح وجهها البريء لا أريد هذا، بل كنت الطفلة المطيعة التي ترى الأشياء في حد الكمال والروعة، لعبتُ دور الفتاة الراضية وإن كل شيء على ما يرام.

لم يكن ذلك عمدًا، فكثيراً ما أحببت أن أترجم لغة صمتي وأدفن لغة الرفض والتعبير عن المراد إلا أن شيء مُكره فرض في شخصيتي قانون تلك اللعبة وحدد ذلك الدور.

كان بيتنا يعج بالسكون والغرابة، لم يكن هناك سلام داخلي ولا تماسك، رغم دفء أمي الذي ملأ أرجاءه إلا أنني دائمًا ما أتحسس تلك الفتحة التي تُسرب الهواء خفية، كان بيتنا صغير وبسيط لكنني أراه حملا هيناً على أمي، في عقلي الباطن أرسم له صورة محفظة ثقيلة على ظهرها.

رغم ظل أبي إلا أن البيت موحشًا ، فقد كان أبي غريباً فيه

يصطحبه الليل ليأتي به ليل آخر حاملاً تجربته السيئة في كؤوس من الغضب، تسكن هيئته الخوف والرهبة، لم أتذكر يوماً أنني تأملت في وجه أبي، كما رنوت إليه التمست ذلك الشعور، فأمضي منفرة منه.

سرعان ما يدخل أبي الغريب البيت، يسود الصمت وكأننا نتهيأ لاستقبال ضيف ما، هنا ينعدم شعور الضحك والمزاح وحتى التساؤل

أدير رأسي إلى أمي فأرى عيونًا عكرهما الهوان، ألمح على شفتيها عتابًا، ولومًا، ودفاعًا، ألمح الرفض والتعبير، إلا أنها تترجم ألفاظها القاتلة إلى لغة الرضا، متمسكة في جزء من ذلك الشيء الضائع خوفاً أن يضيع.

إذا حل الليل لم أجد ملجأ لطفولتي إلا حضن أمي، أغفو على صوت دموعها وهي تدق على الوسادة، فيأخذني النوم على ذلك الأنين متمنية أن يكون الصباح أقل عبثاً وخوفاً من تلك الليلة لم أتمنَّ أبدًا أن يكون الصباح في أسرتنا مخالفًا لما كنا نعيشه،رغم أنني كثيراً ما أناجي بذلك في نفسي؛ لكنني استسلمت للوضع وكأنه واقعاً مطالباً عيشه.

ويسلبني الاستسلام والطوع أكثر كلما نظرت إلى أمي، فأردد {أنا لا أريد أن أكون عبئًا على أمي ، سأكون جزءًا بسيطًا مخففًا عنها جور الأيام } من هنا ورثت من أمي لغة الرضا والصمت،قاسمتها تلك الدموع والآلام، وشربت مع أبي من كؤوس تلك التجربة السيئة.

كل منا نطق بتلك اللغة لسبب ما، فسبب أمي خوفًا أن يضيع أبي، وسببي خوفاً أن تضيع أمي.

توالت الأيام والشهور، وظل الصبر يلازم أمي، كانت تطيل في السجود، وبين الركعة والأخرى أسمتع إلى صوتها الخافت وهي تردد يا لله، ثم تنتهي من الصلاة مبتسمة مطمئنة، أما أنا فأغدو فرحة مسرورة، لم أكن أعرف معنى الصلاة ولا أتقن

الدعاء وليس لي دراية كافية عن
رب العالمين؛ لكن منذ نعومة
أظفاري تشبعت روحي بعطف الله
ورحمته حتى يومنا هذا، فكلما لمحت
الحزن، أشعر بذلك الصوت الحنون
يهاتفني سينتهي كل شيء.

أيام تلو الأخرى تمر بلطفٍ من اللّٰه،
كنت أكبر شيئاً فشيئًا دون أن أدرك
ذلك،فرغم تغير قوام جسمي وطولي إلا
أنني لا زلت تلك الفتاة الصغيرة التي لا
تقوى عن فراق والدتها

كلما كبرت كبر التفكير المقلق الذي دامت سيطرته لأعوام، نفس الأفكار تدور في ذهني، كانت أكثر الأشياء المخيفة، رغم صغر سني إلا أن عقلي كان يكبرني، كنت أحاول أن أفهم ماذا سيكون وراء هذا الحزن؟ وكأنني أسأل بصريح العبارة ماذا تحمل لنا الأيام؟

أنا اليوم ستة سنوات، أتهيأ للذهاب إلى المدرسة واسكتشاف حياة جديدة، كثيراً ما حدثتني عنها أمي، أحببت فكرة التعلم والجو المدرسي، خاصة وأنه سيكون لي صديقات، فقد كنت اجتماعية ومرحة للغاية، لكن يصيبني الخوف فجأة سرعان ما يطرح ذهني تلك الأسئلة المتتالية

ماذا لو دار الشجار بين أمي وأبي؟ ماذا لو غادرت أمي المنزل؟ هل ستتركني أمي وحيدة؟ ماذا لو ذهبت أمي وحلت محلها امرأة أخرى؟ وأهدأ قليلاً كلما تذكرت أن أمي وعدتني بأن لن تتركني بمفردي وستكون بجانبي دائماً

ابتسمت وقد لمعت عيناي بدموع محاولة طرد
تلك الأفكار الشيطانية.

كنت أذهب كل يوم إلى المدرسة،
وأول ما أتمناه في بداية اليوم أن تمر الساعات
بعجالة وأن أعود إلى أمي، في طريقي إلى
المدرسة تصادفني الفتيات اللواتي يتقدمن إلى
المدرسة برفقة آبائهم

كنت أرى تلك الأيادي الصغيرة المعانقة لأيادي
أكبر حجماً، تدخل الصغيرة المدرسة بعد أن
تبادلت مع والدها قبلات وابتسامات حنونة، وإذا
انتهت الحصة ودق الجرس أول ما يخطف أنظاري
ذلك الرجل وهو يضم ابنته ويمسح على رأسها
متسائلاً كيف كان يومك؟

لم تكن تلك الرؤى الجميلة تأخذ حصة كبيرة من تفكيري؛ فقد كانت أمي تزودني بقسطًا أكبر من الحب والحنان.

لم أكن أكتسب بشكل جيد فهم الدروس، فربما لما كان يحيط بي أو ربما لصغر سني؛ لكنني اكتسبت دروسًا أخرى كان أولها القناعة، وأول ما اقتنعت به حنان أمي الكافي، وأدركت

حينها أن ليس بوسع المرء أن يملك كل شيء؛
لذلك أنا لا أستطيع أن أملك حنان أمي
وحنان أبي في الوقت نفسه، هذا ما استطعت
ترجمته في ذلك السن.
في إحدى ليالي الشتاء البارد، بين لحظات
ذلك الجو المرعب،

اجتمعنا على طاولة الطعام، أتذكر جيدًا تلك الليلة، كانت ليلة هادئة رغم ما حلمته رياح الشتاء من ضجيج إلا أمي كانت بارعة في عزف لحن الاطمئنان، تناولنا عشاءنا الذي طهي بأنامل من الحب؛ فكان له ذوق خاص رغم بساطته.

عمّ الهدوء وكل منا أخذ مضطجعه إلا أمي
التي لن تغفو لها عيناً حتى تنام كل واحدة
منا، أتذكر أنني كنت أرتجف من الخوف
فصوت الرياح وزخات المطر رسم في مخيلتي
حلقات من الرعب، احتضنت أمي بكل ما
أملكه من جهد،

ثم ارتعشتُ قائلة: هذا صوت يدق على الباب ربما هذا سارق يا أمي ، أبي ليس هنا، ردت أمي وقد احتوتني بحب قائلة: سارق؟ لا، لا تخافي عزيزتي، لا أحد يستطيع أن يلمس هذا الباب، لأن أباك رجل قوي، هو الآن غائب لأنه يعمل لكي يلبي

احتياجاتكن ويأتي لكن بكل ما تشتهين؛ فإذا
غضب وكان في حالة سيئة أو حدث شجار
بيننا؛ فذلك لأنه متعب ومرهق، هذه الحياة
مثل الفصول؛ متغيرة يا بنتي لدرجة أنها
تجردنا من أنفسنا حتى نتغير مرة إلى الشتاء؛
فيهطل المطر وتهب الرياح

ويرعد البرق, ثم تلين الحياة فنلين ونخرج من شتاءنا القاتم إلى ربيعنا الزاهر حيث الورود والأزهار هكذا نحن } هنا سردت لي أمي قصة من الثقة في سطور رقيقة، أجابتني عن تساؤلات لم أطرحها من قبل لكن أظن أن أمي تتقن لغة العيون، بعثت في ذاتي السكون؛ فنمت على تلك الكلمات التي لم يُذكر فيها

سوء لأبي القوي بل حملت كل معاني الوفاء، كلمات رسمت لي طريق الحب، جعلتني أفهم أن أمي لم تكن أمًّا أو ربة بيت بل كانت الركيزة الأساسية لأسرتنا، كانت الشجرة التي تستظل بها كافة العائلة، أدركت أنها عوضي الجميل؛ فقد غيّرت وجهة

نظري في تلك الأونة، أخرجني من تفكيري المقلق إلى تفكير جديد هو أن أبي لم يكن سيئًا ولا قاس، أبي غيرته الحياة نحو الشتاء، فحين ينتهي الشتاء يزهر أبي بقدوم الربيع، لم تكن أمي بكاقي النساء، لقد كانت أمي عظيمة حقًّا

رسخت تلك القصة المطمئنة في ذهني حتى حل اليوم الذي بانت فيه الزهور وتلونت فيه الحياة بألوان وردية حين طرق الربيع باب بيتنا فلم يزده إلا بهجة وسعادة .

هكذا يحدث عندما يتولى الله زمام الأمور، ويتوكل العبد على ربه ويحسن الظن بأن الفرج آتٍ لا محالة.

ثم يأتي عوض الله بمشاعر عذبة
جديدة، يخبرك أنّ لا نور فرح
يدوم، ولا ظلام حزن يدوم، وأنّ
أحوالنا تتغير من حين لحين لآخر.
فكلّ إنسان في داخله شمس متى
غربت؛ فهو يغرب معها

فليعمل على ألّا يقتصر شعاعها على نفسه بل لابدّ أن يجعل لها أثرًا على الآخرين.

روعة الغروب تكتمل مع رضا النفس وهدوء الروح فتتجدد الآمال في قلوبنا مع كل غروب؛ لأننا نوقن جيداً أن ما عند الله خير والعوض بيد الله.

تمت بحمد الله